من أسرار غزوة بدر

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

المشهور بيننا أن المسلمين لما انتهوا من غزوة بدر اختلفوا فى شأن من أسروه من المشركين ، فرأى فريق قتلهم ، ورأى فريق أخذ الفداء منهم ، فجمع النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه ليشاورهم فيما يفعله مع أولئك الأسرى ، وكان يأخذ بالشورى فى أموره ، ليعلم أصحابه الأخذ بها ، وإن كان هو غنياً عنها ، لأن من يكون معه وحى السماء ، لا يحتاج إلى رأى أهل الأرض ، وهو عرضة للخطأ والصواب .

فجمع النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه وقال لهم : ما تقولون فى هؤلاء ؟ (يعنى الأسرى) ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : يا رسول الله ، قومك وأهلك ، إستبقهم واستأن بهم ، لعل الله أن يتوب عليهم ، وخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار .

وقال عمر رضى الله عنه : يا رسول الله ، كذبوك وأخرجوك فَدَعهم نضرب أعناقهم . مَكِّن عليًّا من عَقيل (أخيه) فيضرب عنقه . ومكن حمزة من العباس (أخيه) فيضرب عنقه . ومكِّنى من فلان (نسيب لعمر) فأضرب عنقه ؛ فإن هؤلاء أئمة الكفر !

وقال عبدالله بن رَواحة الشاعر المعروف : يا رسول الله ، أنظر وادياً كثير الحطب ، فأدخلهم فيه ، ثم أضرمه عليهم ناراً ... وهو رأى يتفق مع طبيعة الشعراء فى تأثرهم بالعاطفة أكثر من العقل ، وشأن العاطفة المغالاة فى الحب والبغض ، وشأن العقل الاعتدال فيهما .

فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجبهم ، ثم تركهم ودخل ، فقال ناس من أهل المجلس : يأخذ بقول أبي بكر . وقال ناس منهم : يأخذ بقول عمر . وقال آخرون : يأخذ بقول عبدالله ابن رواحة . ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ، ويشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة . وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم ، قال : « فمن تبعنى فإنه منى ، ومن عصانى فإنك غفور رحيم » . ومثلك يا أبا بكر مثل عيسي ، قال : « إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » . ومثلك يا عمر مثل نوح ، قال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً » . ومثلك يا عبدالله بن رواحة كمثل موسى ، قال : « ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اليوم أنتم عالة ، فلا يفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق ...

وروى ابن عباس عن عمر أنه قال: فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ، ولم يهو ما قلت ، وأخذ منهم الفداء . فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر قاعدان يبكيان ، فقلت : يارسول الله أخبرنى من أى شيء تبكى أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبكى على أصحابك من أخذهم الفداء . لقد عرض علىّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة — لشجرة قريبة منهم — فأنزل الله عز وجل عليه (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم)

فهذا هو المشهور بيننا في سبب نزول هاتين الآيتين (٦٧، ٦٨) من سورة الأنفال التي نزلت في غزوة بدر ؛ وهو يفيد أن الله تعالى غضب على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه لهذا العمل الإنساني العظيم الذي أشار به أبو بكر ، من البرّ بالأسرى والرفق بهم . وهذا مع أن الذي أشار به أبو بكر هو الذي يتفق مع ما جاء به الإسلام في شأن الأسرى ، ومع ما امتازت به الحروب الإسلامية على الحروب السابقة من الإحسان إليهم . على أن الله قد نصر المسلمين في غزوة بدر نصراً عظيما ، وشفى نفوسهم من صناديد قريش ، فقتلوا فيها كلهم ، ولم يفلت إلا قليل منهم ، وكان منهم في الأسر النَّضر بن الحارث وعُقْبَةُ بن أبي مُعَيْط ، فقتلهما رسول الله في طريقه إلى المدينة ، ولم ينتظر بهما ما فعله في غيرهم من الأسرى . ولما اختار رسول الله رأي أبي بكر في الفداء قال له عبد الله بن مسعود : إلا سُهَيْلُ بن بَيْضاء ، فإني سمعته يذكر الإسلام . قال ابن مسعود : فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما رأيتني في يوم أخوفَ أن تقع عليّ الحجارة من السماء من ذلك اليوم ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلا سهيل بن بيضاء

ولم يبق بعد هؤلاء في الأسرى إلا العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وإلا عَقيلُ بن أبي طالب أخو علي ، وإلا أمثالهما ممن لم يكن من أولئك الصناديد . وقد حقق الله في كثير منهم رجاء أبي بكر (لعل الله أن يتوب عليهم) فأسلم العباس بن عبد المطلب ، وأسلم عقيل بن أبي طالب ، وأسلم كثير غيرهما من أولئك الأسرى . والرأي الذي تحققه الأيام لا يليق بحكمة الله تعالى أن يغضب من إيثاره على غيره ذلك الغضب

وإني أرى أن الإسلام إذا كان قد أباح قتل الأسير مع ما أباحه فيه من الاسترقاق والإطلاق بفداء أو بدون فداء ، فإنه يجب ألا يصار إليه إلا عند الضرورة القصوى والأسباب الموجبة . وإنه ليعجبني ما روى عن الحسن وعطاء رحمهما الله تعالى أنهما قالا : لا يُقتل الأسير ، ولكن يُفادى أو يمنّ عليه ، وكأنهما اعتمدا في ذلك ظاهر قوله تعالى : « فإذا لقيتُمُ الذينَ كفرُوا فَضربَ الرِّقابِ حتى إذا أثخنتموهم فَشُدُّوا الوَثاقَ فإمّا مَنًّا بَعْدُ وإمّا فِداءً حتّى تَضَعَ الحَرْبُ أوْزارَها » — المبسوط للسرخسي ج ١٠ ص ٢٤ — وهذا الذي يذهب إليه الحسن وعطاء في الأسير هو الذي تذهب إليه القوانين الحربية الحديثة

ولهذا كله لا أرى أن السبب في نزول آيتي الأنفال هو إنكار الفداء الذي أشار به أبو بكر واختاره النبي صلى الله عليه وسلم على رأي عمر وعبد الله بن رواحة ، ولا سيما أن هذا الفداء في غزوة بدر لم يكن أول فداء أخذه النبي (ص) من الأسرى ، فقد أخذ الفداء فيما حصل قبلها من السَّرايا ، ولم ينكر الله عليه أخذه له ، وكان ذلك في سَرِيَّة عبد الله بن جحش إلى نخلة بين مكة والطائف ، فرصد فيها عيراً لقريش تحمل زبيباً وأدماً وتجارة من تجاراتهم ، فيها عمرو بن الحضرمي ، وعثمان ونوفل ابنا عبد الله المخزوميان ، والحكم بن كَيْسان مولى هشام بن المغيرة ، فقتلت سرية عبد الله بن جحش بعضهم ، وأسرت عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان ، واستاقت العير إلى المدينة ، فبعثت قريش في فداء الأسيرين ، فقبل النبي صلى الله عليه وسلم فداءهما . فأما الحكم بن كيسان فأسلم وأقام بالمدينة حتى استشهد يوم بئر معُونة ، وأما عثمان بن عبد الله فلحق بمكة ومات بها كافراً

والذي أراه أن تينك الآيتين نزلتا في أمر آخر حصل في غزوة بدر ، وذلك أن تلك الغزوة كانت أهم قتال بدأ به المسلمون بعد هجرتهم إلى المدينة ، وكانوا لا يزالون في نشأتهم قلة بالنسبة إلى قريش ، وهذا إلى غيرهم من المشركين الذين تموج بهم الجزيرة ، فاهتم النبي صلى الله عليه وسلم بأمرها ، وأمر الله فيها المسلمين ألا تأخذهم في قتال المشركين رأفة ولا شفقة ، وأن يثخنوا فيهم إذا مكن لهم منهم ، حتى يَهِيَ أمرهم ، ويضعف شأن الشرك بضعفهم ، ويكون ما يحصل لهم عبرة لغيرهم من المشركين . وفي هذا يقول الله تعالى في سورة الأنفال (سأُلقِي في قلوبِ الذينَ كَفَرُوا الرُّعبَ فاضرِبوا فَوْقَ الأعناقِ وَاضرِبُوا مِنهُم كلَّ بَنَانٍ) — ١٢

ولكن المسلمين في هذه الغزوة لم يكادوا يرون النصر فيها بعد أن قتل الله من قتل من صناديد قريش حتى أدركتهم نخيرتهم